الفكر البلاغي في تناول الإمام محمد عبده لأدوات الربط في تفسير القرآن الكريم

إعداد

أحمد محمد حبشي أحمد

باحث مصري

الملخص:

يهدف البحث إلى بيان بعض ملامح الفكر البلاغي في تناول الأستاذ الإمام محمد عبده لحروف المعاني(أدوات الربط) في تفسير القرآن الكريم؛ أشار الباحث إلى معنى الترابط وأهميته في تفسير القرآن الكريم؛ فالقرآن كلمة واحدة يأخذ بعضه بحجز بعض، ولذلك فإنَّ الإلمام بالدلالات المختلفة لأدوات الربط من أهم ما يحتاج إليه المفسر؛ نظرًا لما تحدثه من تغير في المعاني والأحكام الناشئة عنها ، فتعدد معاني الحرف الواحد في الآية الواحدة يؤدي إلى تعدد معانيها وما يترتب عليها من أحكام فقهية أو تعبدية أو عقدية، ومن ثمَّ تعددت آراء المفسرين واختلفت حول المعاني المستفادة من الآية الواحدة . ولذلك فإنَّ الوقوف على تلك الدلالات المختلفة لتلك الأدوات يعتمد أساسًا على الذائقة اللغوية، والبلاغية لدى المفسر، وتمرنه على الأساليب العربية الفصيحة التي وردت عليها في القرآن الكريم. وقد ساق الباحث بعض الأمثلة التطبيقية التي ظهر من خلالها فقه الأستاذ الإمام بأساليب العربية، ومدى عنايته بأدوات الربط في تفسير القرآن الكريم، وبيان معانيه، كأدوات الشرط، وحروف الجر، وحروف العطف. وقد استخدم الباحث المنهج الاستقرائي من حيث الوصف، والتعليل، والعرض، وبيان الرأي الراجح عند الأستاذ الإمام.

Abstract:

The research aims to explain some features of rhetorical thought in Professor Imam Muhammad Abduh's treatment of the letters of meanings (connecting devices) in interpreting the Holy Qur'an. The researcher pointed out the meaning of interconnectedness and its importance in interpreting the Holy Qur'an. The Qur'an is one word that takes some of it by detaining some of it. Therefore, familiarity with the different connotations of the conjunctions is one of the most important things the interpreter needs. Due to the change, it brings about in the meanings and rulings arising from it, the multiple meanings of a single letter in a single verse lead to a multiplicity of its meanings and the resulting jurisprudential, religious, or doctrinal rulings. Hence, the

opinions of the interpreters varied and differed about the meanings derived from the single verse. Therefore, determining the various connotations of these tools depends mainly on the linguistic and rhetorical taste of the interpreter and his practice of the eloquent Arabic styles that were mentioned in the Holy Qur'an. The researcher gave some practical examples through which Professor Al-Imam's jurisprudence was demonstrated using Arabic methods and the extent of his attention to conjunctions in interpreting the Holy Qur'an and explaining its meanings, such as subjunctive devices, prepositions, and conjunctions. The researcher used the inductive method in terms of description, explanation, presentation, and statement of the most correct opinion .according to Professor Imam

المقدمة:

حظيت اللَّفظة المفردة في القرآن الكريم بمكانةٍ كبيرة لم تحظ بها في أي نصٍ آخر؛ ظهر من خلالها مدى اصطفاء الحق – سبحانه وتعالى – لألفاظ القرآن، وتوظيفها لأداء المعاني المتعددة، وكذلك قبولها التأويلات المختلفة؛ فانبرى المفسرون والبلاغيون على حدٍ سواء يبحثون عن الدلالات المتعددة لألفاظ القرآن. و انتهى بحثهم إلى التسليم بأنَّ البلاغة القرآنية تتجلى في اختيار اللَّفظ المناسب للمعنى المراد ؛ فكتاب الله لو نُزعت منه لفظة ثم أُدير لسان العرب في أنْ يوجد أحسن منها لا يوجد."([1])

وجديرٌ بالذكر أنَّ القرآن الكريم قد غربل تلك اللغة، واختار من بين جذورها خمسة عشر بالمئة، هي سبب من أسباب إعجازه، وهي سر فصاحته؛ وكأنَّ القرآن، كما يقول (ابن فارس) في كتابه (الصاحبي) :" قد فرض على الناس بيانًا خاصًا"([2])؛ "لأنَّ لغات العرب، ولهجاتهم وإن اختلفت في اللحن والاستعمال، إلا أنها تتفق في المعنى الذي

[1] - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية: تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413هـ- 1993م، ج1، ص30

[2] - الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها لابن فارس، تحقيق: مصطفى الشربيني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2003م، ص211

من أجله صار العرب جميعًا يخشعون للفصاحة من أي قبيل جاءتهم، وهذا المعنى هو مناسبة البناء في أحرف الكلمة الواحدة، ثم ملاءمتها للكلمة التي بإزائها، ثم اتساق الكلام كله حتى يكون كالنغم الذي يُصب في الأذن صبًا ، فيجري أضعفه في النسق مجرى أقواه، لأنَّ جملته مفرغة على تناسب واحد. وقد استوفى القرآن أحسن ما في تلك اللغات من ذلك المعنى، وبان منها بهذه المناسبة العجيبة التي أظهرته على تنوعه في الأوضاع التركيبية مظهر النوع الواحد، وهي مناسبة معجزة في نفسها؛ لأنَّ التأليف بين المواد المختلفة على وجه متناسب ممكن، ولكن التأليف بينها على وجه يجمعها ويجمع الأذواق المختلفة عليها كما اتفق القرآن أمر لا يقول بإمكانه إلا من يعرف معنى الإمكان."([1])

ومن هنا يتبين أنَّ فضل القرآن على لغة العرب كفضل القمر على سائر الكواكب؛ فلقد كان سببًا في حفظ اللغة العربية وألفاظها من الاندثار والضعف، وقد نعته الدكتور: محمد محمد داود بالغربال الذي غربلت به أصوات العربية، والمصفاة التي أخرجت منه ما ينبو عنه السمع، وما يثقل على اللسان([2]). كما أنَّ اللفظة القرآنية " تكاد تستقل - بجرسها ونغمها - بتصوير لوحة كاملة ؛ فيها اللون زاهيًا أو شاحبًا ، وفيها الظل شفيفًا أو كثيفًا .."([3])

والأستاذ الإمام من بين المفسرين الذين أدركوا أنَّ القرآن أصدق ممثل للغة العربية، كما يمثل مرحلة التطور العليا لها؛ فبنزوله أضيفت إلى العربية مزية الثبوت والاستقرار، ومن هنا اعتنى بمباحث الألفاظ، ودلالاتها المتعددة في القرآن الكريم عناية فائقة؛ فمباحث الألفاظ من أظهر المباحث في تفسيره، سواء من حيث الإشارة إلى الدلالة العامة للَّفظ المفرد أو من حيث الإشارة إلى اللَّفظ داخل التَّركيب أو السِّياق العام للآيات؛ فأشار إلى المعاني العامة للكلمة في لسان العرب، وهيئتها من حيث التَّعريف والتَّنكير والإفراد والجمع، وكذلك أسلوب القرآن في إيثار لفظ على آخر، وتوظيفه لأدوات الربط، والضمائر، وإشاراته إلى فوائد التَّقديم والتَّأخير، وغيرها. وفي هذا المبحث ستتناول الدراسة ثلاثة أنواع من أدوات الربط، هي: أدوات الشرط،

[1] - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1424هـ- 2003م، ص55

[2] - الإعجاز البياني في القرآن الكريم: لمحمد محمد داود، دار أجياد للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 1432هـ-2011م، ص46

[3] - مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح: مكتبة وهبة، القاهرة، 2004م، ص32

وحروف الجر، وحروف العطف.

أدوات الربط([1]):

الترابط مصطلحٌ قديم حديث أشار إليه عبد القاهر عند الشروع في وضع نظرية النظم، وسماه:(التعليق) أي: (تعلق الكلم بعضه ببعض)، وأطلق عليه أيضًا: (كمال الاتصال)([2]) . وهذا الترابط يُتناول بالدرس من الناحية التركيبية؛ إذ يتضمن وصفًا وتحليلًا للنظام الذي يجري عليه الائتلاف بين مكونات الجملة من ناحية، وبين الجمل بعضها ببعض من ناحية أخرى، حتى ينشأ منها المعنى الدلالي العام المستفاد، فالترابط ينشأ بين المعنيين داخل الجملة الواحدة أو بين الجملتين إذا كانت العلاقة بينهما وثيقة تشبه علاقة الشيء بنفسه فلا حاجة للربط بأداة."[3]ويجري نظام الترابط وفق ظاهرتين تركيبيتين، هما: الارتباط والربط، والمقصود بالارتباط: نشوء علاقة نحوية سياقية وثيقة بين معنيين دون واسطة لفظية"[4]."

أمَّا المقصود بالربط فهو اصطناع علاقة نحوية سياقية بين معنيين باستعمال واسطة تتمثل في أداة رابطة تدل على تلك العلاقة بين جُمَلٍ أو نص ما أو ضمير بارز عائد، وتلجأ العربية إلى الربط إمَّا لأمن اللبس في فهم الانفصال بين المعنيين، وإمَّا لأمن اللبس في فهم الارتباط بين المعنيين، فالربط هو الحلقة الوسطى بين الارتباط والانفصال "([5])

فلولا هذا الربط بين الجمل التي تمثل صورًا ذهنية معهودة بعضها ببعض لما

---

[1] - الرابط حرف أو ضمير يربط بين أمرين أو هو العلاقة التي تصل شيئين ببعضهما، وتعين كون الأحق منهما متعلقًا بسابقه وقد يسمى الرابط بالعائد وذلك في الموصول، انظر: معجم المصطلحات النحوية والصرفية: د: محمد سمير نجيب اللبدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ-1985م، ص90

[2] - دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: تحقيق: محمود محمد شاكر، المكتبة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م، ص226-231

[3] -نظام الارتباط والربط: لمصطفى حميدة، مكتبة لبنان ناشرو الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ص1، وانظر: في النص الأدبي دراسات أسلوبية إحصائية لسعد مصلوح، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1414هـ -1996م، ص26-32

[4]- البلاغة والأسلوبية: محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984م، ص44-50

[5] - نظام الارتباط والربط: لمصطفى حميدة، ص1، وانظر: في النص الأدبي دراسات أسلوبية لسعد مصلوح، ص26-32

استطاع المتكلم التعبير عما تؤديه هذه الجمل التي يتمم بعضها بعضًا ، ويفسر بعضها بعضًا "[1]

كما عبر عنه بعض العلماء باسم السبك[2] وبعضهم بمصطلح الترابط ويعنون بهذين المصطلحين التماسك التام بين أجزاء الجملة، والنص من ناحية اللفظ، والمضمون ، لذلك يقول (تمام حسان) عن الربط والترابط :" وهناك ظاهرة أخرى تسمى الربط لا تقل خطرًا عن التضام والرتبة في إحكام الجمل؛ لأنها تؤدي إلى ما عبر عنه (عبد القاهر) بقوله في ترابط الجمل : (يأخذ بعضه بحجز بعض)... أمَّا الربط فإنه يتحقق نحويًا من طرق مختلفة إحداها الإحالة، والأخرى المطابقة والأداة، كما يتحقق خارج الجملة بإدراك علاقات الجمل بعضها ببعض. "[3]

وقد قسم الربط إلى (ملفوظٍ وملحوظٍ)، فالملفوظ يكون في الجملة والسياق، فأمَّا الذي يقع في الجملة فيكون بالأدوات كأدوات الجمل وحروف العطف والاستثناء. إلخ، وبالإحالة كإعادة اللفظ وإعادة المعنى الإسنادي وإعادة المعنى الإفرادي وعود الضمير والإشارة والموصول، وبالمطابقة في الشخص والعدد وفي النوع وفي التعيين وفي الإعراب. وأمَّا الذي يقع في السياق فيكون كالإشارة إلى ما سبق وإعادة صدر الكلام والإشارة إلى ما يلي. والملحوظ يكون بإدراك العلاقة بين الجملتين كعلاقة : التفسير، والسببية، والتفصيل، والإبطال، وتقدير الحذف ..إلخ"[4]

ومن هنا فقد بات الإلمام بالدلالات المختلفة لأدوات الربط من أهم ما يحتاج إليه المفسر؛ نظرًا لما تحدثه تلك الأدوات من تغير في المعاني، والأحكام الفقهية الناشئة عنها لاسيما في كتاب الله –عزوجل - ؛ فتعدد معاني الحرف الواحد في الآية الواحدة يؤدي إلى تعدد معانيها، وما يترتب عليها من أحكام فقهية، أو تعبدية، أو عقدية، ومن ثمَّ تعددت آراء المفسرين واختلفت حول المعاني المستفادة من الآية الواحدة، كما أنَّ الوقوف على تلك الدلالات المختلفة لتلك الأدوات يعتمد أساسًا على الذائقة اللغوية والبلاغية لدى المفسر وتمرنه على الأساليب العربية الفصيحة التي وردت عليها في

---

[1] - اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، الهيئة العربية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م، ص 213، و انظر: الشرط في القرآن الكريم، لعبد العزيز على الصالح، كلية الآداب، جامعة القاهرة ماجستير، ،1396هـ 1976م -، إشراف: د: علي النجدي ناصف، ص193

[2]- الخلاصة النحوية لتمام حسان، عالم الكتب، 2002م، ص88

[3] - الخلاصة النحوية لتمام حسان، ص88

[4] - الخلاصة النحوية لتمام حسان، ص89 بتصرف

القرآن الكريم.

والأستاذ الإمام من بين هؤلاء المفسرين الذين يفقهون تلك الأساليب العربية الفصيحة التي جاءت عليها أدوات الربط في القرآن الكريم، والتي ظهرت من خلالها شخصيته؛ فتارة يشير إليها مبينًا بعض نكاتها البلاغية ومزاياها، وأخرى يقارن بينها مبينًا سبب ورود أداة دون أخرى وهكذا، وثالثة يبين وجوه معانيها، ويستنبط من خلالها بعض الأحكام الفقهية والتعبدية، وهو في الوقت نفسه قد يوافق غيره من البلاغيين والمفسرين، وقد يخالفهم، بل يستدرك عليهم.

ومن أدوات الربط التي أشار إليها الأستاذ الإمام:

أ-<u>أدوات الشرط:</u>

لقد توسع النحاة في دراسة الأدوات بصفة عامة وأدوات الشرط بصفة خاصة؛ فتعرضوا لمعانيها والسياقات الواردة بها[1]. أمَّا البلاغيون فقد مسوا أدوات الشرط مسًا خفيفًا؛ حيث ربطوا معرفة النكات البلاغية بمعرفة المراد من الأدوات الشرطية، وبينوا أنَّ هذه الأدوات معروفة تفصيلًا في علم النحو؛ فمعرفة استعمال الأداة وما تفيده من معانٍ هو الداعي إلى استعمالها في المقام الخاص بها .."[2]

- إنْ وإذا:

ذكر سيبويه أنَّ (إنْ) أم حروف الشرط؛ لأنَّ معنى الشرط لا يفارقها أبدًا "[3] ومعنى ذلك أنها أكثر أدوات الشرط استعمالاً في القرآن واللغة، فقد وردت في سورة البقرة زهاء ست وخمسين مرة، في حين وردت (إذا) زهاء تسع وعشرين"[4]

وذكر ابن هشام أن (إنْ) ترد على أربعة أوجه[5]:

أحدها: أنْ تكون شرطية، نحو قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾(الأنفال: ٣٨).

---

[1] - انظر على سبيل المثال: مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري، تحقيق: عبد اللطيف محمد الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، السلسلة التراثية، الكويت، 1421هـ- 2000م

[2] - شروح التلخيص: للخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ص35

[3] -الكتاب لسيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ- 1988م ج3، ص63

[4] - إن الشرطية في القرآن الكريم، سورة البقرة أنموذجًا، دراسة تركيبية تطبيقية، سالم خليفة حسين، مجلة الجامعة الأسمرية، المجلد السابع عشر، ديسمبر 2012، ص184

[5] - مغني اللبيب لابن هشام، ج1، ص125 وما بعدها باختصار

الثاني أنْ تكون نافية، وتدخل على الجملة الاسمية، نحو قوله تعالى﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾(الملك: ٢٠). وعلى الجملة الفعلية ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة: ١٠٧).

الثالث: أن تكون مخففة من الثقيلة: فتدخل على الجملتين الاسمية والفعلية، نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(هود: ١١١)، فقد قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة و أبو جعفر وغيرهم بتشديد (إنْ) . وقرأ ابن كثير ونافع و أبوبكر عن عاصم وغيرهم (وإنْ كلاً لَمَا) بتخفيف (إنْ) والميم من (لَمَّا)، وإعمال إنْ مخففة كإعمالها مشددة.. ويكثر إهمالها نحو قوله تعالى: ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف: (٣٤ – ٣٥).

الرابع : أن تكون زائدة : نحو قول الشاعر[1] :

ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه إذن فلا رفعت سوطي إليَّ يدي

وأمَّا (إذا) فهي على وجهين[2]: أحدهما: أن تكون للمفاجأة، فتختص بالجمل الاسمية، ولا تحتاج لجواب –لأنها متضمنة معنى الشرط - ، ولا تقع في الابتداء، ومعناها الحال لا الاستقبال، نحو خرجت فإذا الأسد بالباب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ (طه: ٢٠).

والثاني من وجهي (إذا) أن تكون لغير مفاجأة ؛ فالغالب أن تكون ظرفًا للمستقبل مضمنة معنى الشرط، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية عكس الفجائية ، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾(الروم: ٢٥)، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(الروم: ٤٨)، ويكون الفعل بعدها ماضيًا كثيرًا ، ومضارعًا دون ذلك ، وقد اجتمعا في قول أبي

[1]- البيت من البسيط للنابغة الذبياني في ديوانه، ص36 يمدح النعمان بن المنذر برواية: ما قلت من سيئ مما أتيت به

[2] - مغني اللبيب لابن هشام: ج1، ص48 وما بعدها باختصار

ذؤيب[1]):

والنفسُ راغبةٌ إذا رغبتها وإذا تُردُّ إلى قليل تقنعُ

و إنما دخلت الشرطية على الاسم في نحو قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (الانشقاق: ١)، لأنه فاعل بفعل محذوف على شريطة التفسير، لا مبتدأ خلافًا للأخفش[2].

ويبدو لي أنَّ النحاة والبلاغيين متفقون على أنَّ الشرط في (إن وإذا) للاستقبال ؛ بمعنى أن الفعل فيهما أو بعدهما لا بد أن يكون مستقبل المعنى ؛ سواء كان ماضي اللفظ أو مضارعه ، وهذا متفق عليه [3].

وتفترق (إنْ) عن (إذا) في أنّ الأصل فيها –أي في (إن) –عدم الجزم بوقوع الشرط، ولذا فهي لا تقع في كلام الله على الأصل؛ لأنَّه عالمٌ بحقائق الأشياء على ما هي عليه، فيستحيل في حقه تعالى الشك والتردد في شيءٍ ما، لكنها تقع حكاية عن أحد أو على ضرب من التأويل."[4]

والذي يعنينا في هذا المقام هو استعمالهما شرطيتين، وكذلك استعمال إنْ محل إذا عندما تخرج عن أصل استعمالها؛ ويعدل بها إلى المحقق وقوعه، وقد فرق الأستاذ الإمام بينهما في الاستعمال والدلالة عندما أشار إلى القاعدة المعروفة في العربية[5]، وهي أنَّ شرط (إذ)ا يقتضي الوقوع، وشرط (إن) يقتضي عدم الوقوع أو الشك فيه. وبمعنى آخر فإنَّ (إنْ) ترد في القرآن الكريم عندما يكون الأمر محتملاً للشك، نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾(النساء:

---

[1] - البيت من الكامل لأبي ذؤيب في ديوانه، تحقيق وشرح: د: أنطونيوس بطرس، دار صادر، بيروت، 1424هـ-2003م ص145

[2]- جوَّز الأخفش أن يكون الاسم بعد إذا مبتدأ

[3]- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، تحقيق: عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص546

[4] - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: لبهاء الدين السبكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1423هـ-2003م، ج12، ص38 و انظر: من بلاغة التقييد بالشرط في القرآن الكريم لأحمد إسماعيل حسن علي، ص62

[5]- أشار إلى هذه القاعدة عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، ص327 و انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم: لمحمد عبد الخالق عضيمة ، دار الحديث ، القاهرة ، ج1، ص169

٣)، وليس الأمر كذلك مع (إذا) التي تأتي عندما يكون الأمر مؤكدًا لا شك فيه ، كما في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ (الكهف: ٢٤).

وقد أبان الأستاذ الإمام عن سر استعمال التعبير القرآني (إن) بدلاً من (إذا) في مواضع كثيرة، ظهر من خلالها مدى فهمه وحساسيته بأساليب اللغة، ومنها:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة: ٢٣٠)، قال : "عبَّر عن الطلقة الثالثة بإنْ دون إذا؛ للاشعار بأنها لا ينبغي أنْ تقع مطلقًا ، كأنَّه –تعالى – لا يرضى أن يتجاوز الطلاق المرتين"([1]) .

جاء جواب الشرط (فلا تحل له) مضارعًا منفيًا مقترنًا بالفاء جوازًا، والسر في استعمال (إن) في هذه الآية أنَّ الطلقة الثالثة قد يتردد فيها الرجل مراتٍ ومراتٍ قبل النطق بها؛ لما يترتب عليها من خراب البيوت، وتدمير الأسر. ويرى أستاذنا (شوقي الزَّهرة) أن تلك التطليقة لا تحدث إلا نادرًا وبعد صراعٍ نفسي عند الرجل ، فاستخدام (إن) فيه دلالة على هذا الصراع النفسي عند الرجل نفسه"([2]).

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣)، فعبَّر عن كون الريب بإنْ للإيذان بأنَّ من شأن هذا التنزيل أنْ لا يرتاب فيه؛ لأنَّ الحق فيه ظاهر بذاته ، يتلألأ نوره في كل آية من آياته([3]) ، يقول الشاعر:

إذا لمْ تكنْ للمرءِ عينٌ صحيحةٌ فلا غرو أنْ يرتابَ والصبحُ مسفرُ([4])

وأسلوب الشرط في الآية فيه دلالة على حال هؤلاء المرتابين في كون القرآن من عند الله –عزوجل – ولذلك تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فسبحان من هذا كلامه ، ثم يُعرِّض بهؤلاء المرتابين مشيرًا إلى أن ريبهم وشكهم في غير محله ، فهم في ريبهم هذا كالأعمى لا يبصر وإن كان الصبح مسفر.وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ

---

[1] - تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) لمحمد عبده ورشيد رضا الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990م، ج2، ص391

[2] - جاء هذا القول ضمن ملاحظاته على الرسالة، ص125

[3] - المنار: ج1، ص191

[4] - البيت للبدر العيني في مقدمة كتاب عمدة القارئ شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (ت855هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، 1421 هـ- 2001 م ، ج1، ص22

تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(البقرة: ٢٤)، أبانَ عن نكتة مجيء (إنْ) مكان (إذا) بقوله :"أنَّ الله –عزوجل – عبرَّعن نفي وقوع الفعل منهم بإنْ التي يعبربها عما يُشك في شرطه ، أو يجزم المتكلم بعدم وقوعه ، ومقتضى القاعدة أن يكون الشرط هنا بإذا لأنَّ المحقق أنهم لن يفعلوا كما صرحت به الآية مع القطع بأن الله تعالى منزه عن الشك، ولكن القواعد التي تذكر في علم البلاغة قد ينظر فيها إلى حال المخاطب لا حال المتكلم، والمعول عليه هو ما يقصد المتكلم أن يبلغه من نفس المخاطب ويودعه في ذهنه ، فهنا يخاطب الله المرتابين، والذين هم في جحودهم وعنادهم كالواثقين الموقنين ، خطابًا يؤذن أوله بأن عدم الإتيان بما تحداهم به مشكوك فيه ، ولازمه أنَّ المعارضة جائزة منهم، وداخلة في حدود إمكانهم، فخاطبهم بهذا مراعاة لظاهر حالهم التي تومئ إلى القدرة على المعارضة، وتشير إلى إمكان الإتيان بالسورة ، ثم كرَّعلى هذا الإيذان، بل الإيهام بالنقض بلا تلبث ولا تريث ، و أبطل مراعاة الظاهر، بل حولها إلى تهكم بالنفي المؤكد.. "([1])

وهنا لابد أن نشير إلى أن الأستاذ الإمام قد راعى المقام والتداولية في تفسير هذه الآية؛ فأشار إلى قواعد البلاغة ومراعاتها حال المخاطب والمقام بالإضافة إلى حال المتكلم؛ حيث أشار إلى أسلوب القرآن الكريم وطريقته في حجاج المعاندين، والمشركين، واليهود، والنصارى؛ فالله -سبحانه وتعالى- أراد أن يجاري هؤلاء المرتابين في القرآن الكريم حتى يعترفوا ويقروا بعجزهم عن الإتيان بمثل أصغر سورة في القرآن الكريم، فلما تبين لهم عجزهم، تهكم منهم بقوله :(ولن تفعلوا).

وفي قوله تعالى مخاطبًا المؤمنين مخبرًا إياهم بِهَمِ المشركين الأكبر وهو منع الإسلام من الأرض: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة: ٢١٧)، قال: وقوله: (إن استطاعوا) يفيد الشك في استطاعتهم وعدم الثقة بها ؛ لأنَّ مَنْ عرف الإسلام معرفةً صحيحةً، وهو الحق الصريح لا يرجع عنه إلى الكفر، وهو الباطل المفضوح ، وهكذا يكون، فلا يزال الكفار يقاتلوننا ليردونا عن ديننا

[1] - المنار: ج1، ص 195، والأعمال الكاملة: للإمام محمد عبده: تحقيق وتقديم: محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، 1414هـ-1993م ، ج4، ص100

إن استطاعوا، ولم يستطيعوا ."([1])

وقد بدا لي من تفسير هذه الآية شجاعة الأستاذ الإمام وقوته في تقرير حقائق الدين وما يُحاك للإسلام وأهله؛ حيث أشار إلى أنَّ هَمَّ المشركين الأول هو منع الإسلام من الأرض، وهذه حقيقة لا يُماري فيها إلا جاهل، وأنَّ ترك قتالهم هو السبب فيما آلت إليه الأمة من ضعف وهوان، وأنَّ الإسلام هو الحقيقة الكبرى، فمن ذاق طعمه، وتمكن من قلبه، لا يرجع عنه أبدًا ، وهذا هو السر في قول الأستاذ الإمام :(ولم يستطيعوا)

- إذ وإذا:

فرَّق الأستاذ الإمام في تفسيره بين استعمال (إذ وإذا)عندما أشار إلى منهج القرآن في الحديث عن أحوال أهل الكتاب الذين كانوا قبل زمن التنزيل ، وحديثه عن الذين عاصروا التنزيل منهم، ومن غيرهم من العرب ، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(البقرة: ١٤)، قال : " غيَّر الأسلوب هنا ؛ فإنه كان يحكي سيئاتهم مبتدئًا بكلمة (وإذ)([2]) لأنَّه تذكيرٌ بما كان في الزمان الماضي ، والابتداء بكلمة (إذا) هنا هو المناسب في الحكاية عن حال و اقعة في الحال ، مستمرة في الاستقبال، والمراد من حكاية أحوال الحاضرين، بيان أنها مساوية لأحوال سلفهم الغابرين، و أنه لا يرجى من هؤلاء أفضل مما كان من أولئك ".

وهو بذلك يشير إلى أنَّ (إذ) ظرف للزمن الماضي؛ فإضافتها إلى الجملة الفعلية المصدرة بالزمن الماضي أكثر من إضافتها إلى الجملة الفعلية المصدرة بالفعل المضارع، والفعل المضارع بعدها بمعنى الماضي، لأنَّها تصرف المضارع إلى الماضي[3]. أمَّا أصل (إذا) الظرفية لما يستقبل من الزمان ...ثم يُتوسع فيها ، فتستعمل في الفعل المستمر في الأحوال كلها: الحاضرة، والماضية، والمستقبلة "([4]) .

---

[1] - المنار: ج2، ص318

[2] - كما في قوله تعالى مثلًا: **سمح** وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢**سجى** البقرة: ٧٢

[3] - دراسات لأسلوب القرآن الكريم: محمد عبد الخالق عضيمة، ج1، ص103

[4] - البرهان في علوم القرآن للزركشي: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط3، 1404هـ.1984م

ج4، 197، و انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم: محمد عبد الخالق عضيمة، ج1، ص176

●أنَّى([1])بمعنى كيف:

نبه الأســتاذ الإمام إلى أنَّ (أنَّى) وردت في قوله تعالى: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٣) ، بمعنى (كيف) لدلالتها على الكيفية والصــفة، وخالف بعض مفســري الشــيعة، وعاب عليهم، واتهمهم بعدم فهم الآية، وحكمها، وحكمتها، ونزاهتها، وأدبها ؛ حيث إنهم جعلوا (أنّى) في -هذه الآية- بمعنى المكان، لا بمعنى الكيفية والصفة ، فقال:" وقوله تعالى :(أنَّى شــئتم) معناه: كيف شــئتم و(أنَّى) تســتعمل غالبًا بمعنى كيف، وتســتعمل بمعنى أين قليلًا ، ولا يظهر هنا لأنَّ الحرث له مكان واحد لا يتعداه، والأمر مقيد به، ولذلك أعاد ذكر الحرث مُظهرًا ، ولم يقل : (فأتوهن أنَّى شــئتم)، فكأنَّه يقول: لا حرج عليكم في إتيان النساء بأي كيفية شئتم ما دمتم تقصدون بها الحرث في موضعه الطبيعي، لأنَّ الشـارع لا يقصـد إلى إعناتكم ، ومنعكم من لذاتكم ، ولكن يريد ليوقفكم عند حدود المصلحة والمنفعة كيلا تضعوا الأشياء في غير مواضعها فتفوت المنفعة وتحل المفسدة "([2]).

وقد اسـتند الأسـتاذ الإمام على كون أنَّى تسـتعمل بمعنى أين قليلًا، وبما أنَّ الآية لم تذكر إلا مكانًا واحدًا وهو الحرث فرجح كونها بمعنى كيف، وهذا رأي الجمهور من مفسري السنة.

وقد عول الأستاذ الإمام في تفسير هذه الآية على أمور، منها:

- فهم أســاليب اللغة العالية؛ فســياق قوله تعالى:(فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ)، تصريح بما فهم من قوله تعالى في الآية السـابقة :(فأتوهن من حيث أمركم الله) أو بيان له ، فالحكمة من الإتيان كما يرى الأسـتاذ الإمام ليسـت مجرد الاسـتمتاع بين الطرفين فقط ، وإنما حفظ النوع والاسـتيلاد كما يُحفظ النبات بالحرث والزرع، ولو كان المقصود مجرد الاستلذاذ فقط لما نُهى عن إتيانهن في المحيض .

- إعادة لفظ الحرث في الآية مظهرًا؛ لأنَّ الحرث له مكان واحد لا يتعداه، والأمر مقيد به.

[1] - و أنَّى إنما يجئ سـؤالًا وإخبارًا على أمر له جهات هي أعم في اللغة من كيف ومن أين ومن متى، هذا هو الاسـتعمال العربي، انظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسـي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2010م ج2، ص181

[2] - المنار: ج2، ص362، والأعمال الكاملة: ج4، ص595

- قوله: إنَّ جنون المسلمين بالرواية هو الذي حمل بعضهم على تفسير الآية بهذا المعنى الذي تتبرأ منه عبارتها العالية، ونزاهتها السامية، ولم يلتفتوا إلى ذوق التعبير ومراعاة الأدب في بيان هذه الأحكام، فقد فاتهم فهم حكمها، كما فاتهم فهم حكمتها ونزاهتها. وأصح الروايات في سبب نزول هذه الآية حديث جابر بن عبد الله عند الشيخين[1]، وغيرهما ."[2]

ب- حروف الجر، ومنها:

مِنْ:

وهي من الحروف التي تحتمل أكثر من معنى داخل السياق الواحد لا سيما في القرآن الكريم ولذلك رأيناهم يفردون لها بابًا مخصوصًا[3]، وقد يختلفون في تفسير الآية تبعًا لمعناها، فهذا يجعلها لابتداء الغاية، نحو قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة: ٢٥)، وذاك يجعلها لابتداء الغاية وانتهائها، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(الحجرات: ٤)، وثالث يجعلها للتبعيض، نحو قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، ورابع يجعلها للبيان ، نحو قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٣)، وخامس يجعلها بمعنى عن ، نحو قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ٤)، وسادس

---

[1] - ورواية البخاري: قال: حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن ابن المنكدر، سمعت جابرًا –رضي الله عنه – قال:" كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، كتاب: التفسير، باب: نساؤكم حرث لكم، برقم 4528

[2] - المنار: ج2، ص365، والأعمال الكاملة: ج4، ص596

[3] - انظر مثلًا: رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالكي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط3، 1423هـ 2002م، ص388 وما بعدها، وانظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ج3، ص320 وما بعدها

يجعلها زائدة ، نحو قوله تعالى : ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (البقرة: ١٠٥).

ولذلك فقد اهتم بها الأستاذ الإمام أيّما اهتمام مُشيرًا إلى معانيها المختلفة داخل السياق القرآني، ومُنكرًا عليهم القول بزيادتها بناءً على منهجه الذي أشرنا إليه سابقًا وهو نفي الزيادة في القرآن الكريم ، نحو ، قوله تعالى : ﴿ وَ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٠٢)، فقد جعلها لاستغراق النفي وتأكيده ، ونفى زيادتها معللًا ذلك بأنَّ:" الزائد ما يذكر للتحلية ولا يكون له معنى.."[1]

وهذا القول من الأستاذ الإمام أشار إليه الدكتور(محمد الأمين الخضري) عندما تحدث عن زيادة (من) وحذفها قائلًا:" فإذا قيل إنَّ (من) زائدة هنا أو محذوفة هناك، فإنها دعوة لإعمال القلب والفكر في استجلاء أسرار الحذف والزيادة، ولا أحسب أن القول بالزيادة للتأكيد، والحذف للإيجاز يمكن أن يرتفع إلى المستوى الذي يستلهم بلاغة الذكر الحكيم. ومن شواهد حذفها: قوله تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَ إِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَ أَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾(الأعراف: 155)، قال أبو عبيدة: مجازه اختار موسى من قومه، ولكن بعض العرب يجتازون فيحذفون (من) قال العجاج : "تحت التي اختار له الله الشجر. وكأن هذه لغة من لغات العرب ."[2]. ومن أسرار حذف (من) في الآية : النعي على بني إسرائيل لكثرة تمردهم وعصيانهم .. حتى كأنه لم يجد فيهم خيارًا غير هؤلاء السبعين وفي ذلك ما فيه من التلميح بكثرة العاصين، وقلة الصالحين فيهم. ومن

[1] - المنار: ج1، ص408، والأعمال الكاملة: ج4، ص429

[2] - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم لمحمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، القاهرة، 1409هـ- ص336

ثَمَّ فإنَّ ذكر (من) يذهب بهذا الغرض؛ لأنه يوحي بكثرة الأخيار، وهؤلاء بعض منهم."([1])

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّاۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧)، أشار إلى اختلاف المفسرين في معنى (مِن) ورجح كونها للبيان وفاقًا للزمخشري([2])، ثم ذكر النكتة فيها بقوله:" و(من البيت) قال الجلال([3]) : إنه متعلق بيرفع، وهذا إنما يصح إذا أريد بالبيت العرصة أو البقعة التي وقع فيها البناء ، والأكثرون على أنَّ (من) للبيان ، وعليه يكون البيت بمعنى نفس البناء والجدران ، وهناك قولٌ ثالث ، وهو أنَّ (من) للتبعيض بناءً على أنَّ البيت مجموع العرصة والبناء . وفي الكلام نكتة لطيفة وهي أنَّ ذكر القواعد أولاً ينبه الذهن ويحركه إلى طلب معرفة القواعد ما هي؟ وقواعد أي شيء هي؟ ، فإذا جاء البيان بعد ذلك كان أحسن وقعًا في النفس ، وأشد تمكنًا في الذهن ."([4])

أمَّا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٢)، فقد رأينا المفسرين في قوله:(منهم) على وجهين : الأول :أنَّ (من) للتبيين ؛ لأنَّ الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم و اتقوا لا بعضهم ، وعن عروة بن الزبير، قال : قالت لي عائشة – رضي الله عنها - :"إنَّ أبويك لمن الذين استجابوا لله والرسول ، تعني أبا بكر، والزبير"([5])

والثاني([6]): ما رجحه الأستاذ الإمام أنَّها للتبعيض معللًا ذلك بقوله :" هي في محلها لأن من المؤمنين الصادقين من لم يخرج مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى حمراء الأسد([7]) ، أي وهم من الذين لا يضيع الله أجرهم، ولكنهم لا يستحقون الأجر

---

[1]- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم للخضري، ص336

[2] - انظر: الكشاف للزمخشري، ج1، ص96

[3] - تفسير الجلالين الميسر بهامش المصحف الشريف (جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي)، دار الحديث القاهرة، ط3، 1422هـ- 2001م، ص20

[4] - المنار: ج1، ص469، والأعمال الكاملة: ج4، ص296

[5] - الكشاف: ج4، ص206، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب الذين استجابوا لله ورسوله، الحديث رقم 4077، وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير، الحديث رقم 6199

[6] - من في الآية حال من الضمير في أحسنوا، وهو قول من يرى أنها لا تكون لبيان الجنس، انظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى الحلبي، 1976م، ص310، والبحر المحيط: ج3، ص122، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ج 3، ص344

[7] - أخرج بن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال : "إن الله قذف الرعب في قلب أبي سفيان يوم

العظيم الذي استحقه الذين خرجوا معه وهم مثقلون بالجراح ومرهقون من الإعياء إلى استئناف قتال أضعافهم من الأقوياء. وثمَّ وجه آخر وهو أنه وجِدَ في نفوس بعض المؤمنين بعد (أُحد) شيء من الضعف فهذه الآيات كلها تأديب لهم. ولمَّا دعاهم – صلى الله عليه وسلم- للخروج لبوا واستجابوا له ظاهرًا وباطنًا ، ولكن عرض لبعضهم عند الخروج بالفعل مو انع في أنفسهم أو أهليهم فلم يخرجوا ، فأراد من الذين أحسنوا، و اتقوا، الذين خرجوا بالفعل، وهم بعض الذين استجابوا "([1])

وقد عول الأستاذ الإمام هنا على أسباب النزول في تفسير هذه الآية وبالتحديد في بيان معنى قوله تعالى :(منهم)؛ فسياق الآيات يدل على أنها نزلت بعد غزوة أحد وبالتحديد في غزوة حمراء الأسد، فخصت أصحاب تلك الغزوة بالإحسان والتقوى فاستحقوا الأجر العظيم من الله تعالى. و أنا أرى أنه إن صح ما روي في عدد الصحابة الذين خرجوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم – في حمراء الأسد؛ فإنَّ هذه الآية قد رفعت من قدر هؤلاء الذين خرجوا مع رسول الله وكأن الله قد اختارهم للقاء عدوه، كما اختار سبعين رجلًا من قوم موسى لميقاته- والله أعلم-.

حرف الباء:

من الحروف التي تعددت معانيها[2] في القرآن الكريم تبعًا للسياق مما أدى إلى

أحد بعد الذي كان منه فرجع إلى مكة فقال النبي –صلى الله عليه وسلم - :" إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفًا وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب "وكانت وقعة أحد في شوال وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة فينزلون ببدر الصغرى وإنهم قدموا بعد أحد وكان أصاب المؤمنين القرح واشتكوا ذلك فندب النبي –ص- الناس لينطلقوا معه فجاء الشيطان فخوف أولياءه ، فقال -ص- " –: إن الناس قد جمعوا لكم " فأبى عليه الناس أن يتبعوه ، فقال –ص- : إني ذاهب ولو لم يتبعني أحد " فانتدب معه أبوبكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وسعد وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان و أبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلًا فساروا في طلب أبي سفيان فطلبوه حتى بلغوا الصفراء، فأنزل الله (ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ) آل عمران: ١٧٢ ، انظر: أسباب النزول المسمى : لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ، لبنان ، 1422هـ - 2002م ، ص66 ، والحديث رواه الطبري في تاريخه ج4، ص117

[1] - المنار: ج4، ص237 ، والأعمال الكاملة : ج5، ص128

[2] الباء من الحروف التي اتسع فيها العرب اتساعا كبيرا ؛ حيث وصلت معانيها إلى أربعة عشر معنى ، أساس هذه المعاني هو معنى الإلصاق والاختلاط ، ومن هذه المعاني : التعدية ، نحو قوله تعالى(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ)

اختلاف الفقهاء والمفسرين في بعض الأحكام الفقهية؛ على نحو ما نجد في آية الوضوء مثلًا، فقد اختلفوا في معنى الباء في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(المائدة: ٦)، فمنهم من جعلها للإلصاق ، ومنهم من جعلها للتبعيض، ومنهم من قال بزيادتها للتوكيد([1])

وإذا كانت الباء تأتي عند المفسرين والفقهاء والنحويين للإلصاق والتبعيض والتوكيد، فإنها تأتي عند الأستاذ الإمام لمعنى خاص يفهمه العربي من الأسلوب، كما أنها نظم سماعي ورد على غير القاعدة ينبغي أن يحفظ في اللغة ولا يقاس عليه، يقول في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة: ١٦٦)، فإنك إذا قلت هنا كما قال الجلال: تقطعت عنهم الأسباب، لا ترى في نفسك الأثر الذي تراه عند تلاوة العبارة الأولى التي تمثل لك التابعين والمتبوعين كعقد انفرط بانقطاع سلكه، فذهبت كل حبة منه في ناحية ...ومن هذه الأساليب الخاصة قوله تعالى : (وكفى بالله شهيدًا)، و"سبحان الله"، فإذا فسرت ذلك بالتحليل والإرجاع إلى القواعد العامة، فقلت في الأول: كفى الله شهيدًا أو كفت شهادته، وفي الثاني: " تسبيحًا لله " لم يكن له تأثير الأول وموقعه من النفس. ومثل هذه الأساليب الخاصة توجد في كل لغة "([2])

وفي قوله تعالى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ

البقرة 17، والاستعلاء ، نحو قوله تعالى : (وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ) هود 37 والظرفية ، نحو قوله تعالى : (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ) غافر55، وغيرها كثير، انظر: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم للخضري ، ص168 وما بعدها

[1] - انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ج3، ص451، والتبيان للعكبري، ص422، ومغني اللبيب، ج1، ص98، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم، ج2، ص4، والإلصاق هو الاختلاط والإلزاق، نحو قوله تعالى: (لَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) البقرة: ٤٢

[2] - المنار: ج2، ص85، والأعمال الكاملة: ج4، ص388

وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٦)، يشير إلى أقوال النحاة في معنى الباء ، فبعضهم يقول : بزيادتها ، وبعضهم يقول : إنَّ الفاعل مصدر محذوف ، والباء حرف جر أصلي متعلق به . أمَّا الأستاذ الإمام فيقول:" إنَّ المعنى مع وجود الباء هو غير المعنى مع عدمها، فلها معنى في الكلام كيفما أعربت، وإنَّ (كفى) فعل ليس له فاعل، والجار متعلق به، ومعناه أنَّ الله عزوجل هو أشد من ير اقب ويحاسب. وهذه الجملة من فر ائد البلاغة المسموعة التي لا تحتذى ولا يؤتى بمثل لها.. فلا يمكن تطبيقها على القواعد الموضوعة للكلام المعروف عند جميع العرب الدائر على ألسنة أهل الفصاحة والفهامة على السواء "([1])

نفهم مما سبق أن نظرة الأستاذ الإمام إلى أن القرآن لا يخضع لقواعد النحاة، هي نظرة متطورة؛ وهذا ما يحاول إثباته منذ الوهلة الأولى للشروع في التفسير. " فنحو القرآن لا يصح أن يقاس على قواعد النحاة، وأصولهم التي رسموها ، بل تُعرض قواعد نحوهم تلك وتنقاس عليه."([2])

وقد أشار الأستاذ الإمام إلى معنى التعدية في الباء مستحسنًا إياها عن التعدية بالهمزة ؛ فعند تفسير قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾(البقرة: ١٧)، قال : "و إنما قال: ذهب الله بنورهم، ولم يقل: ذهب نورهم، أو أذهب الله نورهم للإشعار بأنَّ الله تعالى كان معهم بمعونته، وتوفيقه عندما استوقدوا النار فأضاءت، وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التي فطر الناس عليها، معتقدين صحة شريعته التي دعا الناس إليها، وبأنه تخلى عنهم عندما نكبوا عن تلك السبيل، وعافوا ذلك المورد السلسبيل"([3])

وجديرٌ بالذكر أنَّ الدكتور: (محمد الأمين الخضري) قد تتبع مادة (الذهاب) في القرآن الكريم، فوجد أنها وردت متعدية بالباء في أربعة عشر موضعًا، بصورة الماضي والمضارع والأمر والمصدر، وكلها لا تخلو من معنى الاستصحاب، سواء كان على سبيل الحقيقة أم المجاز. فمما هو على سبيل الحقيقة قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

[1] - المنار: ج4، ص392، والأعمال الكاملة: ج5، ص170

[2] - الشرط في القرآن الكريم لعبد العزيز علي الصالح، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ماجستير، إشراف: د: علي النجدي ناصف 1396هـ_ 1976م، المقدمة، ص ب

[3] - المنار: ج1، ص171، والأعمال الكاملة: ج4، ص144

(يوسف: ١٥)، وقوله تعالى: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (يوسف: ٩٣) ، وقوله تعالى : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل: ٢٨)

ومما جاء على سبيل التجوز، الأخذ أو الإهلاك أو الإمساك ، قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾(البقرة: ١٧)، وقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٠)، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور: ٤٣)، ومعنى اللصوق والمصاحبة في هذا كله واضح ، ولو رحت تستبدل الهمزة بالباء فيها، لذهب معها سر البلاغة الذي قصد إليه النظم أو فسد المعنى .."[1]

حرف اللام:

وهو من الحروف التي اختلف النحاة والمفسرون في توجيه معناها [2] كثيرًا ؛ لا سيما في القرآن الكريم، وقد أرجعها (المرادي) جميعها إلى معناها الأصلي وهو الاختصاص، فقال:" والتحقيق أنَّ معنى اللام في الأصل هو الاختصاص، وهو معنى لا يفارقها، وقد يصحبها معانٍ أخر، وإذا تؤملت جميع المعاني المذكورة وجدت راجعة إلى الاختصاص، و أنواع الاختصاص متعددة؛ ألا ترى أن من معانيها المشهورة التعليل. قال بعضهم: وهو راجع إلى معنى الاختصاص، لأنه إذا قلت : جئتك للإكرام ، دلت اللام على أن مجيئك مختص بالإكرام، إذ كان الإكرام سببه دون غيره فتأمل ."[3]

وهذا الذي قاله (المرادي) هو الأليق ببلاغة هذا اللسان، ونبحث عنه فيما خفي

---

[1] - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، للخضري، ص169-170

[2] - تعددت معانيها في اللغة عمومًا وفي القرآن الكريم بصفة خاصة أوصلها ابن هشام إلى اثنين وعشرين معنى، ومنها: الاستحقاق والاختصاص والملك وشبه الملك والتمليك و التعليل والجحود والتبليغ والتقوية والتبيين والتعدية والعاقبة أو الصيرورة والأمر وبمعنى عن وإلى وعلى وفي والباء وبعد وعند، انظر في معانيها: مغني اللبيب لابن هشام: ج3، ص 70 وما بعدها، ودراسات لأسلوب القرآن اكريم : لمحمد عبد الخالق عضيمة ، ج2، ص430 وما بعدها

[3] - الجني الداني في حروف المعاني للمرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة، أ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413هـ- 1993م، ص109

من مو اقعها، والتبس بغيره من الحروف منقبين عن دقائق الفروق من خلال ما يهمس به السياق ."([1])

وجديرٌ بالذكر أنَّ دلالة اللام على الاختصاص قد يكون في بعض المواضع أبلغ من المعاني التي قد تخرج إليها؛ على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾الإسراء: ١٠٧، فالنحاة والمفسرون على أنَّ اللام في الآية بمعنى على .

أمَّا الزمخشري فقد فسر (اللام) بما يدل على معناها الأصلي وهو الاختصاص، حيث يقول: "فإنْ قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذ قلت: خر على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام في قولنا: خر لذقنه و لوجهه؟، قال: فخر صريعًا لليدين وللفم

قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به ، لأنَّ اللام للاختصاص ."([2])

وقد رأى الدكتور محمد الأمين الخضري أنَّ دلالة اللام على الاختصاص في الآية أبلغ من الاستعلاء؛ فقال: أرى –والله أعلم – أنَّ الساقط على وجهه والخار على ذقنه اضطرارًا لا يفرق بين عضو يقدمه أو يؤخره، ولا اختيار له في كيفية استقبال الأرض، فهو ينكب عليها بلا وعي، بخلاف الساجد لله شكرًا وتعبدًا، فإنَّ له وفورَ رغبة و إقبالَ نفس، وهو سجود يشرف الأعضاء ويعتقها من نار جهنم.. أمَّا الخار على وجهه من سقوط أو غثيان فإنما يلحق الضرر بالعضو الساقط عليه ويؤذيه ، ألا ترى كيف عدل النظم إلى حرف الاستعلاء حين قصد إلى التردي والسقوط الأعمى والانكباب على الشيء بلا وعي ، فيما نفاه عن عباد الرحمن في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾" (الفرقان: ٧٣)([3])

وقد أشار الأستاذ الإمام إلى ذلك كثيرًا؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(البقرة: ١٨٥)، أشار إلى قولين في معنى اللام ورجح أحدهما بقوله: "اللام للتعليل ، وهي معطوفة على التعليل ... وقيل إنها لتقوية الفعل، كما في قوله :

[1] - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص318

[2] - الكشاف للزمخشري، ج2، ص430

[3] - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم للخضري، ص244

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف: ٨)، أي يريد الله بكم اليسر وأن تكملوا العدة ، وهو يجري في كلام البلغاء كثيرًا ، وهو الراجح عندي".([1])

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة: ١٩٦)، ذكر النكتة من وراء اختيار حرف (اللام) في قوله: (لمن)على حرف(على) بقوله: "بين تعالى أن التمتع بالعمرة مضمومة إلى الحج وما يتبعه من الأحكام خاص بالآفاقيين دون أهل الحرم، وذلك أنَّ أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج وحده ثم السفر إلى العمرة وحدها، هذا ما أختاره .. ولعل وجه الاختيار التعبير(باللام) المفيدة أنَّ التمتع رخصة دون (على) المفيدة للجزاء. وجديرٌ بالذكر أنَّ حرف اللام يأتي بمعنى (على) كثيرًا في كلام الله –تعالى- ، نحو الآية محل الشاهد، ونحو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات:٢)، أي : عليه، وفي كلام العرب، نحو قول الشاعر([2]) :

تناولت بالرمح الأصم ثيابه فخر صريعًا لليدين وللفم

أي: على اليدين والفم([3]) .

ج- حروف العطف:

إن الوقوف على أسرار العطف في لغة العرب عامة والقرآن بخاصة ووجوبه

[1] - المنار: ج2، 164، والأعمال: ج4، ص450

[2] - البيت من الطويل للأشعث الكندي في الأزهية 298وفي شرح أدب الكاتب لكعب بن حدير المنقري 359، وفي أدب الكاتب 511، وتأويل مشكل القرآن 597، والاقتضاب لابن السيد 439، والبحر المحيط، ج6، ص10، ص88، والجني الداني، 101، والمغني 213

[3] - معاني الحروف للزجاجي، تحقيق وتقديم: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، دار الأمل، بيروت، اربد، الأردن، ط2، 1406هـ-1986م القسم الثاني، ص75

وامتناعه وتركه وحروفه والفرق بينها هو في حد ذاته وقوف على أسرار البلاغة؛ لما في هذا الباب من غموض، يقول عبد القاهر الجرجاني: "اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة بعد أخرى، هو سر من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة .."([1])

فهناك نوعان من العطف هما عطف المفرد على المفرد، وهذا يفيد إشراك الثاني في إعراب الأول. وعطف الجملة على الجملة، وهما على ضربين: أحدهما: أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب، وهذه حكمها حكم المفرد؛ فإذا قلت: مررت برجل خلقه حسن وخلقه قبيح كنت قد أشركت الجملة الثانية في حكم الأولى، وذلك الحكم كونها في موضع جر بأنها صفة للنكرة. والضرب الثاني: أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى ، كقولك : زيد قائم ، وعمرو قاعد ، والعلم حسن والجهل قبيح .

ومعلوم أن الواو تفيد الإشراك في الحكم ولذلك لا تجيء: "حتى يكون المعنى في الجملة الثانية لفقًا لمعنى في الأخرى ومُضَامًا له.. ومن هنا عابوا قول أبي تمام([2]) :

لا والذي هو عالم أن النوى صبرٌ وأن أبا الحسين كريم

لأنه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى، ولا تعلق لأحدهما بالآخر، وليس يقتضي الحديث بهذا الحديث بذاك ."([3])

وقد أشار الأستاذ الإمام إلى حروف العطف كثيرًا مبينًا معانيها وفوائدها والحكمة من ورود حرف بمعنى حرف آخر، وهكذا. وهو مع ذلك قد يخالف المفسرين لأنه قد يفهم من حرف العطف في الآية معنىً غير المعنى الذي فهموه منها؛ فهو على سبيل المثال يشير إلى إفادة العطف بالواو في الرد على من ادعوا أنَّ التقوى سببٌ للعلم وليس العكس في قوله تعالى: فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْۗ وَاتَّقُوا اللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، فيقول: "ويُرد استدلالهم بالآية على ذلك من وجهين. أحدهما: أنه لا يرضى به سيبويه وله الحق في ذلك لأن عطف (يعلمكم) على (اتقوا) الله ينافي أن

[1] - دلائل الإعجاز، ص222

[2] - البيت لأبي تمام في ديوانه، ص250

[3] دلائل الإعجاز، ص 224بتصرف

يكون جزاءً له ومرتبًا عليه لأن العطف يقتضي المغايرة. ولو قال (يعلمكم) بالجزم لكان مفيدًا لما قالوه وكذلك لو كان العطف بالفاء أو اتصل بالفعل لام التعليل. وثانيهما: أن قولهم هذا عبارة عن جعل المسبب سببًا، والفرع أصلًا، والنتيجة مقدمة ، فإنَّ المعروف المعقول أنَّ العلم هو الذي يثمر التقوى، فلا تقوى بلا علم "([1])

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾(آل عمران: ١٧)، خالف جمهور المفسرين وفاقًا للزمخشري؛ فبعد أن ذكر الوجوه الإعرابية في الآية، أشار إلى النكتة من وراء مجيء صفات المؤمنين بالعطف، فقال: "العطف يفيد كمال الموصوفين بهذه الأوصاف. وقال غيره من المفسرين:" إننا لا نعهد من معاني الواو الكمال في معطوفاتها "[2] وقال الأستاذ الإمام: "إنَّ بيان الفرق ربما لا تفي به العبارة إلا مع الاستعانة بالسليقة، ويمكن تقريب ذلك بأن يقال: إنَّ الأوصاف المسرودة بغير عطف كالوصف الواحد، وأمَّا عطفها فيفيد أنَّ كلَّ واحد منها وصفٌ مستقل" ([3])

أمّا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٦)، فقد أشار إلى خروج (أو) إلى معنى الواو أو إلى أن تفرضوا أو إلا أن تفرضوا لهن ، أي فحينئذٍ يجب عليكم شيء .."([4]) وهو أن تمتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، كلٌ على حسب حاله.

وقد يستدعي الأسلوب القرآني البليغ الاستغناء عن حرف العطف لنكتة بلاغية فيشير إلى ذلك الأستاذ الإمام؛ فعند تعرضه لقصة البقرة ذكر أنَّ سياق القصة يقتضي الاستغناء عن الفاء؛ " فقد تقرر في البلاغة أن القول إذا أشعر بسؤال كان ما يأتي بعده مما يصح أن يكون جوابًا للسؤال المقدر مفصولًا عما قبله لا يقرن جوابه بالفاء إلا إذا كان للفاء معنى خاص يقتضيه المقام كالتعقيب والجزاء، وليس ذلك موجودًا هنا، فقوله: وهذا يشعر بسؤال أيضًا؛ كأنه قيل: ماذا قال موسى إذ قالوا ذلك؟ فأجاب: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ

[1] - المنار: ج3، ص129

[2] - أبو حيان في البحر المحيط حيث يقول:" ولا نعلم العطف في الصفة بالواو يدل على الكمال " البحر المحيط: ج2، ص418

[3] - المنار: ج2، ص253

[4] - المنار: ج2، ص429

أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾"(البقرة: ٦٧).([1])

الخاتمة:

من خلال هذا البحث يمكننا الجزم بأن الأستاذ الإمام قد تفقه في أساليب العربية فقهًا مكنه من تفسير القرآن الكريم تفسيرًا عصريًا مصحوبًا ببعض اللمسات البلاغية الفريدة التي تزينه؛ حيث استطاع أن يوظف حروف المعاني (أدوات الربط) في تفسيره توظيفًا بلاغيًا:

- فأشار إلى الفرق بينها في الاستعمال وإلى خروجها عن مقتضى الظاهر، وترجيح أحد معانيها عن الآخر تبعًا للسياق الذي يرد فيه.

- كما أنكر قول بعض المفسرين والنحاة بزيادة بعض حروف الجر، فجعله من أساليب اللغة العالية الذي يأتي لمعنى خاص يفهمه العربي من السياق، وقد يكون نظمًا سماعيًا ورد على غير القاعدة.

- كما استحسن التعدية ببعض الحروف عن بعضها الآخر.

-كما أنه قد يفهم من حرف العطف في الآية معنىً مغايرًا لما فهمه غيره من المفسرين فيشير إلى ذلك المعنى مصحوبًا بالدليل.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
1. الإعجاز البياني في القرآن الكريم: لمحمد محمد داود، دار أجياد للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 1432هـ-2011م
2. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، المكتبة العصرية، بيروت، 1424هـ- 2003م
3. الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: تحقيق وتقديم: محمد عمارة، دار الشروق، 1414هـ -1993م
4. أسباب النزول المسمى: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1422هـ -2002م
5. البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2010م

[1] - المنار: ج1، ص350، والأعمال الكاملة: ج4، ص201

6. البرهان في علوم القرآن للزركشي: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط3، 1404هـ.1984م
7. البلاغة والأسلوبية لمحمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984م
8. التبيان في إعراب القرآن للعكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1976م
9. تفسير الجلالين الميسر بهامش المصحف الشريف (جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي)، دار الحديث، القاهرة ، ط3، 1422هـ- 2001م .
10. تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) لمحمد عبده ورشيد رضا الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990 م
11. الجني الداني في حروف المعاني للمرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة أ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413هـ- 1993م
12. الخلاصة النحوية لتمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2002م
13. دراسات لأسلوب القرآن الكريم لمحمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة
14. دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: تحقيق: محمود محمد شاكر المكتبة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م
15. رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط3، 1423هـ_ 2002م
16. شروح التلخيص للخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
17. الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها لابن فارس، تحقيق: مصطفى الشربيني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ، 2003م
18. صحيح البخاري للإمام البخاري، تحقيق: أبو عبد الله محمود ابن الجميل، مكتبة الصفا، مصر، 1423هـ- 2003م
19. صحيح مسلم للإمام مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1374هـ- 1954م
20. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للسبكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1423هـ.2003م
21. عمدة القارئ شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني(ت855هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1421 هـ- 2001 م .
22. في النص الأدبي دراسات أسلوبية إحصائية لسعد مصلوح، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1414هـ -1996م

23.الكتاب لسيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ- 1988م
24.الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، تحقيق: عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
25.اللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان: الهيئة العربية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م
26.مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح، مكتبة وهبة، القاهرة، 2004م
27.المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413هـ- 1993م
28. معاني الحروف للزجاجي، تحقيق وتقديم: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، دار الأمل، بيروت، اربد، الأردن، ط2، 1406هـ-1986م
29.معجم المصطلحات النحوية والصرفية د: محمد سمير نجيب اللبدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1405هـ_ 1985م
30.مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري، تحقيق: عبد اللطيف محمد الخطيب المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب السلسلة التراثية، الكويت، 1421هـ- 2000م
31.من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم لمحمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، القاهرة، 1409هـ-
32.نظام الارتباط والربط لمصطفى حميدة، مكتبة لبنان ناشرو الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان
33.الرسائل العلمية:
34.الشرط في القرآن الكريم لعبد العزيز الصالح، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ماجستير، 1396هـ_ 1976م
35.المجلات العلمية:
36.إن الشرطية في القرآن الكريم: (سورة البقرة أنموذجًا دراسة تركيبية تطبيقية): سالم خليفة حسن، مجلة الجامعة الأسمرية ، المجلد السابع عشر، ديسمبر، 2012م
37.من بلاغة التقيد بالشرط في القرآن الكريم لأحمد إسماعيل حسن
38.SIIRT UNIVERSITE SIILAHIYAT FAKULTESI DERGISI . CIL T :1. SAYI 1 .S. 59-81